المحاضرة الخامسة: الخطاب عند البلاغيين

تمهيد:

يُعدّ الخطاب المادة الجوهرية للبلاغة العربية، التي تجاوزت حدود الجملة إلى النص الكامل بوصفها نظرية تداولية؛ متكاملة. ترتكز البلاغة على مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حيث تُقاس فاعلية الخطاب بناءً على قصدية المُخاطِب ومراعاته لحال المُخاطَب وسياق المقام . كما رسخت نظرية النظم الخطاب ككيان متماسك، مؤكدة أن البلاغة كامنة في تأليف أجزاء النص وعلاقاتها النحوية لخدمة المعنى الكلي وتوجيهه.

مفهوم الخطاب في التراث البلاغي:

لم يتطرق البلاغيون صراحة لمصطلح الخطاب في كتبهم، بل أشاروا إليه بمصطلحات عديدة منها: الكلام، النظم، وهو ما نجده مثلا عند:

-أبي يعقوب يوسف السكاكي (ت. 626 هـ) "البلاغة: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته."

إن السكاكي اهتم بالخطاب من خلال ربطه بالكلام الذي يعني حسب سياقه الخطاب الكلي وليس مجرد لفظ مجرد، وقد اشترط السكاكي اقتران الكلام (الخطاب) بمقضى الحال، فهذه المطابقة ليست مجرد صحة نحوية، بل هي حسن اختيار المتكلم الأسلوب المناسب لكل موقف.

إن هذا التعريف يجعل الخطاب البليغ فعلا تواصلا وظيفيا ناجحا، حيث يتحدد معيار جودته من خلال السياقات الخارجية التي تتحكم في نشأته.

-عبد القاهر الجرجاني: النظم: هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم؛ على حسب توخي معانيها فيما بين المعاني".

إن الجرجاني وإن لم يصرح بمصطلح الخطاب إلا أنه عبر عنه بمصطلح النظم، فالنظم عنده ليس مجرد ترتيب فحسب، بل تأليف الكلمات على حسب ما يقتضيه المعنى الذي يُراد التعبير عنه.

وتوخي معاني النحو من (تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وذكر وحذف، ووصل وفصل) علاقات تتجاوز مبدأ الإعراب إلى خدمة المعنى والقصد البلاغي، وبهذا يرفض الجرجاني فكرة

أن البلاغة في الألفاظ المفردة، مؤكداً أن الخطاب قوة كامنة في **التركيب**، حيث تكتسب الكلمة قيمتها من جوارها.

يتضح من التقاء التعريفين أن الخطاب عند البلاغيين:

الخطاب الإجرائي/الخارجي :(عند السكاكي ومَن تبعه): حيث يُعتبر الخطاب ممارسة تخضع لضوابط الموقف التواصلي (مطابقة الحال).

الخطاب النصي/الداخلي :(عند الجرجاني): حيث يُعتبر الخطاب بنية متكاملة، وقيمة الألفاظ فيه متولدة من النظم الذي يخدم القصد والمعنى.

عناصر العملية الخطابية:

تعتبر البلاغة العربية القديمة في جوهرها نظرية متكاملة لتحليل الخطاب، حيث نقلت الدراسة من مستوى الألفاظ المفردة إلى مستوى التركيب الكامل والنص في إطاره التواصلي.

يُمكن تقسيم عناصر العملية الخطابية التي ركز عليها البلاغيون إلى ثلاثة أركان متداخلة، يجمعها هدف واحد هو تحقيق البلاغة أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

1-المخاطِب (المرسل): عنصر القصدية والإرادة:

البلاغة تنطلق من قصدية المتكلم (المخاطِب)، فالبليغ هو الذي يعرف مراده وطريقة الوصول إليه.

أهميته في تحديد المعنى: يرى البلاغيون أن المعاني ليست كامنة في الألفاظ بحد ذاتها، بل فيما يقصده المتكلم من نظم هذه الألفاظ. هذه القصدية هي ما يُقسّم الكلام إلى:

الخبر: ويُستخدم لغرض الإخبار أو الإفادة أو التحفيز.

الإنشاء: ويُستخدم لغرض الطلب أو التأثير المباشر (كالأمر، والنهي، والاستفهام الحقيقي).

مطابقة الكلام لمقتضى الحال (من جهة المتكلم): البليغ هو الذي يختار طريقة التعبير التي تحقق غرضه تماماً، فإذا كان قصده الإيجاز اختاره، وإذا كان قصده الإطناب (للتعظيم أو الشرح) اختاره.

2- المخاطَب (المتلقي): عنصر الحال والاعتبار العقلي والنفسي

يرتكز جوهر البلاغة على مراعاة حال المتلقي (المخاطَب)، فبدون هذه المراعاة يفقد الخطاب قيمته الإقناعية والتأثيرية.

- **اعتبار حال المتلقي:** يجب على المخاطِب أن يزن حال المخاطَب من حيث:

عقله ومعرفته: هل هو عالم؟ جاهل؟

نفسيته وموقفه: هل هو مصدق؟ شاك؟ منكر؟ مُتعجّل؟

- **فن الإقناع والتأثير (علم المعاني)** :هذا الاعتبار هو أساس استخدام أدوات التأكيد والحذف والتقديم والتأخير:

إذا كان المخاطَب خالي الذهن، يُلقى إليه الخطاب بلا توكيد.

إذا كان شاكاً، يُؤكَّد له بـ (إنَّ) أو (لام الابتداء).

إذا كان منكراً تماماً، وجب المبالغة في التوكيد بأكثر من أداة (ليطابق الخطاب حال الإنكار لديه).

فالخطاب البليغ هو خطاب إقناعي تداولي، يُبنى ليؤثر في متلقٍ محدد في موقف معين.

3-الخطاب (الرسالة/النص): عنصر البنية والنظم

عند البلاغيين، الخطاب يتجاوز حدود الجملة إلى النص الكامل، وقيمته تنبع من العلاقات بين أجزائه.

البلاغة تتجاوز الجملة إلى النص :لم يدرس البلاغيون "التركيب" النحوي فحسب، بل درسوا بنية النص الكلية من خلال نظريات مثل:

النظم: الذي يرى أن البلاغة تكمن في تآلف الألفاظ على حسب معاني النحو؛ أي أن الكلمات تكتسب قيمتها من مكانها في السياق النصي وعلاقاتها النحوية والمنطقية ببعضها البعض.

الفصل والوصل: وهو من أهم مباحث علم المعاني، ويُعنى بدراسة ربط الجمل بعضها ببعض (الوصل) أو تركها دون رابط (الفصل) لخدمة المعنى الكلي للخطاب.

أدوات الإيضاح والتزيين (علمي البيان والبديع):

علم البيان :يوضح كيف يمكن عرض المعنى الواحد بأكثر من طريقة (التشبيه، الاستعارة، المجاز) لزيادة الإيضاح والتأثير الجمالي في النص.

علم البديع :يدرس الأساليب التي تُجمّل الخطاب وتزينه (مثل الجناس والطباق) ليصبح أكثر قبولاً لدى المتلقي.

البلاغة والخطاب:

العلاقة بين البلاغة والخطاب هي علاقة جوهرية وظيفية تكاملية؛ فالبلاغة هي العلم الذي يحدد قواعد الخطاب الناجح والفعّال، بينما الخطاب هو المجال التطبيقي والمادة الأساسية للبلاغة.

يمكن تلخيص هذه العلاقة في النقاط التالية:

البلاغة هي الغاية والخطاب هو الوسيلة

تُعد العلاقة بين البلاغة والخطاب علاقة وظيفية جوهرية، فالبلاغة ليست مجرد قواعد تجميلية، بل هي العلم الوظيفي والمعيار الذي يحدد كيفية تحقيق هدف تواصلي محدد. يتجسد هذا الهدف عبر الخطاب الذي يُمثّل المادة والتطبيق، حيث عرّفها البلاغيون بأنها" مطابقة الكلام (الخطاب) لمقتضى الحال"، أي أن الخطاب هو الكلام التام المُوجَّه، والبلاغة هي مجموعة القوانين التي تضمن أداء المعنى بأسلوب مؤثر وفعّال يتلاءم مع سياق التلقي.

الخطاب هو الوحدة الأساسية للبلاغة

لقد تجاوزت البلاغة العربية القديمة حدود الجملة والمفردات المنفصلة لتركز على الخطاب كوحدة نصية متكاملة وأشمل. فالبلاغي يدرس التراكيب، مثل التقديم والتأخير، كأدوات وظيفية لتوجيه المعنى ضمن سياق الخطاب الكلي. وقد رسّخت نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني هذه النظرة، حيث جعلت البلاغة كامنة في تأليف أجزاء الخطاب على نحو يخدم القصد، مؤكدة أن الخطاب كيان متماسك تكتسب فيه الكلمات قيمتها من موقعها في التركيب.

العلاقة قائمة على عناصر التواصل

تُعامل البلاغة القديمة ك**نظرية تداولية** شاملة، حيث تتكامل فيها جميع عناصر الخطاب. فالبلاغة تتجسد في **قصدية المخاطِب** وحسن اختياره للأسلوب الأنسب لإيصال المعنى. كما تتطلب **مراعاة حال المخاطَب** (منكراً كان أو شاكاً)، لتكييف الأسلوب وتحقيق الإقناع المطلوب، وهو أساس علم المعاني. والأهم، أن البلاغة مشروطة بـ**المقام (السياق)**، حيث تُقاس جودة الخطاب بمدى مطابقته للظرف والحال؛ فإذا لم يتحقق هذا التوافق، سقطت بلاغته.